عمرُ بنِ عبدِ العزيزِ
فتى بَني أُمَيَّةَ
(61 ـ 101هـ)

قَرنَهُ المُؤَرِّخُونَ بِالخُلفاءِ الرَّاشدينَ لأَنَّهُ أَعادَ لِلخلافَةِ الإِسلاميَّةِ رَونَقَها ورُشدَها، وأَصلحَ مِنْ سِياسةِ الحُكَّامِ والولاةِ والأمراءِ، وجَعلَهُمْ يَحكمونَ بِالعدلِ والإِحسانِ بينَ النَّاسِ، ويَسوسونَ الخَليقَةَ وفقَ مَعاييرِ الشَّريعةِ الغرَّاءِ.

لَقَدْ جَدَّدَ «عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ» ﷺ، طريقَةَ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ في إِدارةِ الخِلافَةِ والحكمِ، وكانَ في ذَلكَ أَشبَهَ بِطريقَةِ جَدِّهِ الفاروقِ عمرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ، فَبعدَ أَنْ عَصفَتْ بِالمُسلمينَ العَواصِفُ، وبَعُدَت الشُّقَّةُ بَينَهُمْ وبينَ خُلفائِهِم وحُكَّامِهِمْ، حيثُ صارَ الخُلفاءُ يَجلسونَ في بُرجِهِم العاجي، بَعيدينَ عَنِ الرَّعيَّةِ، ضاربينَ حولَهُمْ أَسواراً مِنَ الحُرَّاسِ والحُجَّابِ، فَضلاً عَنْ قَصرِ الخِلافَةِ الَّذي يَحرمُ عَلى عامَّةِ النَّاسِ وَطْءُ عَتبَتِهِ، أَو الاقترابُ مِنهُ، سَواءٌ لِحاجَةٍ أَو لِغيرِ حاجَةٍ. وَبعدَ نِهايَةِ الخِلافَةِ الرَّاشِدَةِ، وبِدايَةِ الخِلافَةِ الأُمويَّةِ، تَبدَّلَ الحالُ غيرَ الحالِ، واستَيْقَظَتِ النَّزَعَاتُ الجَاهِلِيَّةُ الَّتي قَضَى عليها الإِسلامُ، وأَقبلَت العصبيَّاتُ القَبيليَّةُ تُطِلُّ بِرأَسِها مِنْ جَديدٍ، تِلكَ النَّزَعَاتُ والعَصبياتُ الَّتي نَعاها

الرَّسُولُ الأَكرمُ ﷺ في خُطبَتِهِ عِندما خَطبَ في حجَّةِ الوداعِ مُعلِناً انتهاءَ عَصرِ الظَّلامِ والجَاهِلِيَّةِ، وبِدايَةَ عَصرِ النُّورِ والإِيمانِ، بَعدَ أَنْ أَتمَّ اللهُ ﷻ لِهذِهِ الأُمَّةِ دينَها، وأَكملَ لَها رِسالَتَها: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَذهبَ عنكُمْ نزعةَ الجَاهِلِيَّةِ وتَعظُّمَها بِالآباءِ، كُلُّكُمْ مِنْ آدمَ وآدمُ مِنْ تُرابٍ، لا فَخرَ لِعربيٍّ عَلى عَجميٍّ، ولا لِعجميٍّ عَلى عَربيٍّ إِلَّا بِالتَّقوَى**».

فبَعدَ أَنْ كانَ المبدأُ السَّائِدُ في بَيتِ مالِ المُسلمينَ في العَهدِ الرَّاشديِّ هوَ المُتمَثِّلُ بِقولِ الرَّسولِ الأَعظمِ ﷺ: «**تُؤخَذُ مِنْ أَغنيائِهِمْ وتُرَدُّ عَلى فُقرائِهِمْ**»، أَصبَحَ المَبدأُ السَّائِدُ في العَهدِ الأُمويِّ: تُؤخَذُ مِنْ فُقرائِهِمْ وتُرَدُّ عَلى أَغنيائِهِمْ وأُمرائِهِمْ وشُعرائِهِمْ، وبَعدَ أَنْ كانَ مَجلسُ الخليفَةِ يَكتَظُّ بِأُولي العلمِ وذَوي الفَضْلِ، صارَ يَزدَحمُ بِالشُّعراءِ المُحترفينِ المُذبذبينَ، والنُّدماءِ المُتزلفينَ المُتملِّقينَ فَتُنفَقُ عليهِمْ أموالُ الصَّدَقَاتِ بِسَخاءٍ، قيَّضَ اللهُ لِهذِهِ الأُمَّةِ مَنْ يُعيدُ الحقَّ إِلى نِصابِهِ، ويُعيدُ إِلى الأذهانِ والعقولِ ورعَ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ، وخوفِهِمْ مِنْ أَنْ يَذلوا وهُمْ يَحكمونَ الخِلافَةَ إِلى مَزالقِ الهَوى والشَّيطانِ.

فَتسلَّمَ الخِلافَةَ فَتى بَني أُميَّةَ «عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ» الَّذي كانَ ـ بِحقٍّ ـ مُعجزةً باهرةً في التَّاريخِ خَبَّأها اللهُ لِنصرةِ الإِسلامِ، وكانَ كما تَمَنَّى جَدُّهُ الفاروقُ عُمرُ؛ نَسمَةً مُبارَكةً هَبَّتْ وتَعلَّلَ بِها النَّاسُ في قَيظِ السِّنينِ، فَعمدَ مِنْ أَوَّلِ يومٍ مِن اسْتخلافِهِ إِلى إِصلاحِ ما أَفسَدَهُ الحُكَّامُ والأُمراءُ مِنْ ذاتِ بينِهِمْ معَ الرَّعيَّةِ، وقَضَى عَلى مَظاهرِ الظُّلمِ والجورِ، والأبهةِ والتَّرفِ، وأَعادَ إِلى الخِلافَةِ الإِسلاميَّةِ سيرَتَها الأُولَى، ورَدَّها إِلى وَضعِها الرَّاشدي، وحملَ الأَمانَةَ، وأَدَّى الرِّسالةَ، وجاهدَ بِاللهِ حَقَّ جِهادِهِ حَتَّى أتاهُ اليَقينُ.

فَمَنْ هوَ فَتَى بَني أُميَّةَ، الأَشَجُّ، كما نُبِّىءَ عَنهُ قبلَ مولدِهِ بِسنينَ طويلةٍ؟
هذا ما سَنعرفُهُ في الصَّفَحاتِ التَّالِيةِ.

❁ ❁ ❁

هوَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ مروانَ بنِ الحكم بنِ أَبي العاصِ بنِ أُميَّةَ بنِ عبدِ شَمسٍ بنِ عبدِ منافٍ القُرشيِّ الأُمويِّ، سابعُ خُلفاءِ بني أُميَّةَ، وجَدُّهُ الأَعلَى عَبدُ شَمسٍ شَقيقُ جدِّ النَّبيِّ هاشمُ بنِ عبدِ منافٍ، فَالأُسرةُ الهاشميَّةُ والأُمويَّةُ تَلتقيانِ في النَّسبِ في عَبدِ منافٍ.

أَمَّا أُمُّهُ فَهيَ «أُمُّ عاصمٍ بنتُ عاصمِ بنِ عُمرَ بنِ الخَطَّابِ» فيكونُ جدُّهُ الأَعلَى مِنْ جهةِ أُمِّهِ هوَ الفاروقُ عمرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه.

فقَدْ ذَكرَ المُؤَرِّخُونَ: أنَّ عُمرَ بنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه نَهَى في خِلافَتِهِ عَنْ مَذقِ اللَّبنِ بِالماءِ، فَخرجَ ذاتَ ليلَةٍ في حواشي المَدينةِ، فَإِذا بِامرأةٍ تَقولُ لابنتِها:

أَلا تَمذُقينَ لَبنَكِ فَقَدْ أَصبَحتِ؟

فَقَالَت الجاريَةُ: كيفَ أَمذُقُ وقَدْ نَهَى أَميرُ المُؤمنينَ عَنِ المَذقِ؟

فقالتْ: قَدْ مذَقَ النَّاسُ، فَامذُقي. فَما يُدري أَميرَ المُؤمنينَ؟

فَقَالَتْ: إِنْ كانَ عُمرُ لا يَعلمُ فَإِلهُ عُمرَ يَعلمُ، ما كُنتُ لأَفعلَهُ وقَدْ نَهَى عَنهُ.

فَوقَعَتْ مقالَتُها مِنْ عُمرَ، فَلمَّا أَصبحَ دعا عاصماً ابنهُ فَقَالَ لهُ:

يا بُنيَّ، اِذهَبْ إِلى موضِعِ كذا وكذا، فَاسأَلْ عَن الجاريَةِ ـ ووصَفَها لَهُ ـ فَذَهبَ عاصمٌ فَإِذا هيَ جاريَةٌ مِنْ بَني هلالٍ، فَقَالَ لَهُ أَبوهُ: اِذهبْ يا بُني فَتزوجْها، فَما أَحراها أَنْ تأتي

بِفارسٍ يَسودُ العربَ (وفي روايَةٍ: لعلَّ اللهَ يَرزُقُكَ مِنها نَسمةً مُباركةً)، فَتزوَّجَها عاصمٌ بنُ عُمَرَ فَولدَتْ لَهُ «أُمَّ عاصمٍ» فَتزوَّجها عبدُ العزيزِ بنُ مروانَ بنِ الحَكمِ، فَولدَتْ لَهُ عُمرَ بنَ عبدِ العزيزِ.

ولِهذا كانَ عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ النَّسمةَ المُباركةَ الَّتي رَزقَ اللهُ بِها عاصمَ بنَ عُمرَ وفقَ بشارةِ الفاروقِ عمرَ بِهِ، ولِهذا أَيضاً كانَ عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ أَشبَهَ النَّاسِ بِجدِّهِ عُمرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه.

ولِدَ عُمرُ في المدينةِ المُنوَّرةِ سنةَ (61) هجريَّةً، وكانَ أَبوهُ والياً عَلى المدينَةِ حينَها، فَنشأَ عُمرُ نَشأَةً عَلميَّةً ودينيَّةً منذُ صغرِهِ، يَتقلَّبُ في مجالسِ كبارِ الصَّحابَةِ، وفي مُقدِّمتِهِمْ خالُهُ عَبدُ اللهِ بنُ عُمرَ بنِ الخَطَّابِ الَّذي كانَ مُحدِّثَ المَدينةِ وفَقيهَها، ولَمَّا ولي أَبوهُ مِصرَ، بَقيَ عُمرُ في المدينةِ في عِهدةِ خالِهِ عبدِ اللهِ بنِ عُمرَ، فَتربَّى عَلى يَديهِ، وأَخذَ مِنهُ الصِّفاتِ والخِلالَ العُمريَّةَ وعَلى رأسِ هذِهِ الصِّفاتِ الورعُ والخشيَةُ مِنَ اللهِ سبحانه وتعالى.

وفي شَبابِهِ تَحوَّلَ عَنِ المَدينةِ إِلى مصرَ، فَأَقامَ معَ أَبيهِ حَتَّى وفاتِهِ، وفي ذَلكَ الحينِ لُقِّبَ عُمرُ بـ «أَشَجَّ بَني أُميَّةَ» لأَنَّهُ وقعَ عَنْ حمارٍ يَركبُهُ فَشُجَّ رأْسُهُ، ثُمَّ تزوَّجَ مِن ابنةِ عَمِّهِ عَبدِ الملكِ بنِ مروانَ، ولِحُسنِ أَخلاقِهِ عَيَّنَهُ عَمُّهُ والياً عَلى المَدينَةِ المُنوَّرةِ فَسارَ بِالنَّاسِ سيرةً حَسنةً، وطافَتْ سيرَتُهُ وأَخبارُ ورعِهِ وعَدلِهِ تَجوبُ في آفاقِ البِلادِ طولاً وعرضاً كَرجلٍ مُحبٍّ لِلعدلِ والمُساواةِ بينَ النَّاسِ.

ومِمَّا يُذكرُ: أَنَّ والي العراقِ «الحجَّاج بنَ يوسُفَ الثَّقفيَّ» رغمَ بَطشِهِ وجَبروتِهِ، كانَ لا يَخشَى مِنَ النَّاسِ أَحداً كَخَشيَتِهِ مِنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ومهابَتِهِ لَهُ.

وعندما ولي سُليمانُ بنُ عبدِ الملكِ الخلافَةَ بَعدَ أَخيهِ الوليدِ سنةَ (99) هجريَّةً لاقَى منهُ عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ كُلَّ احترامٍ وتَقديرٍ، لأَنَّ سُليمانَ كانَ مُعجباً بِأَخلاقِ ابنِ عَمِّهِ وطَريقَةِ عيشِهِ الَّتي تُشبِهُ إِلى حَدٍّ كبيرٍ طريقَةَ جدِّهِ عُمرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ الَّتي تَرتكزُ عَلى البِساطةِ والشُّعورِ بِالمَسؤوليَّةِ، والورعِ والخَوفِ مِنْ عَلَّامِ الغُيوبِ.

ولأَنَّ سُليمانَ بنَ عبدِ الملكِ خلفَ أَبناءً كانوا صِغاراً أَوصَى بِالخلافَةِ قبيلَ موتِهِ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ بِناءً عَلى مشورةِ العالمِ والفقيهِ «رجاءَ بنِ حَيوَةَ» وإِلى يَزيدَ بنِ عبدِ الملكِ مِنْ بَعدِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، فَتولَّى عمرُ الخِلافَةَ بَعدَ وفاةِ سُليمانَ مباشرةً، وأُخذَتْ لَهُ البيعةُ في دمشقَ سنةَ (99) هجريَّةً، ومُنذُ اليومِ الأَوَّلِ مِنْ خِلافَتِهِ اتبَّعَ سِياسَةَ جَدِّهِ «عُمرَ بنِ الخَطَّابِ»، وأَخذَ النَّاسَ بِالحقِّ، فاستمرَّتْ خِلافتُهُ نَحوَ سَنتينِ ونصفٍ كانَتْ رَغيدةً عَلى النَّاسِ، وثَقيلةً عَلى بَعضِ أَفرادِ البيتِ الأُمويِّ، لأَنَّهُ جَرَّدَهُمْ مِنِ امتيازاتِهِمْ وأَجبرَهُمْ عَلى إِعادةِ الحقوقِ إِلى أَصحابِها، وقَدِ اتُّهِمَ هؤلاءِ أَنَّهُمْ دَسُّوا لَهُ السُّمَّ، فَتوفيَ في ديرِ سَمعانَ سنةَ (101) هجريَّةً.

وقَدْ حَظيَ العُلماءُ والفُقهاءُ منزلةً عاليَةً في فترةِ حُكمِهِ، وأَجرَى عليهِم الرَّواتبَ والأُجورَ، وقَدْ عدَّهُ بَعضُ المُؤَرِّخِينَ مُتَمِّماً لِعَصرِ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ.

❋ ❋ ❋

كانَ «عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ» رَجُلاً سليمَ الفِطرةِ، يَميلُ نَحوَ التَّواضُعِ والعفافِ والاعترافِ بِالحَقِّ، ولَو عَلى نَفسِهِ، وكانَ مُحبّاً لِلهِ سبحانه ورَسولِهِ الكريم ﷺ، يَمتازُ بِنزعةِ الخَوفِ والرَّهبةِ مِنْ عَلَّامِ الغُيوبِ، ولِهذا شَرعَ منذُ اليَومِ الأَوَّلِ لِتقلُّدِهِ الخلافَةَ في الإِصلاحِ ورَدِّ التَّاريخِ عَلى أَعقابِهِ، فَرَفضَ كُلَّ مظاهرِ العَظمةِ والأبَّهةِ الَّتي آنَسَها خُلفاءُ بَني أُميَّةَ قبلَهُ، ورَدَّ إِلى بيتِ مالِ المُسلمينَ ما لا حَقَّ لَهُ فيهِ مِنْ مراكبَ وسُرادقاتٍ، ورَدَّ المَظالمَ، وأَبطلَ المَجالِسَ الَّتي أَشبَهَتْ مَجالسَ الأَباطرةِ، حيثُ قَلَّدَ فيها خُلفاءُ بَني أُميَّةَ لأَوَّلِ مرَّةٍ في تاريخِ الإِسلامِ سننَ كِسرَى وقيصرَ، وخالفوا فيها سننَ رَسولِ اللهِ ﷺ وخُلفائِهِ الرَّاشدينَ رضي الله عنهم مِنْ بَعدِهِ، ورَدَّ الجواري اللَّواتي كُنَّ يَملأْنَ حُجراتِ القُصورِ وأَفنيَتَها إِلى بِلادِهِنَّ وأَهليهِنَّ، ونَهَى عَنِ القيامِ لَهُ إِجلالاً وتَعظيماً، وأَباحَ دخولَ النَّاسِ عليهِ مِنْ دونِ إِذنٍ، حَتَّى حُليِّ وجواهرِ زَوجَتِهِ الَّتي أَهداها لَها أَبوها الخليفَةُ عبدُ الملكِ يَومَ عرسِها رَدَّها إِلى بيتِ مالِ المُسلمينَ، وغَمرَتْ حياتُهُ مظاهرَ الزُّهدِ والتَّقَشُّفِ، وبلغَ في طريقَةِ عيشِهِ مَبلَغاً لا يَستَطيعُهُ أَكبرُ الزُّهادِ، إِلَى حَدِّ أَنْ كانَ طعامُهُ هوَ وأَهلُ بيتِهِ دونَ طَعامِ أَفقرِ فُقراءِ المُسلمينَ، فَكانَ أَكثرُ طعامِ بَناتِهِ العدسَ المَغليَّ بِالماءِ والبَصلِ، وإِذا بَناتُهُ سَأَلنَهُ أَنْ يُوسِّعَ عليهِنَّ بِالطَّعامِ والشَّرابِ كانَ يَبكي ويَقولُ لَهُنَّ: يا بَناتي، ما يَنفَعكُنَّ أَنْ تَعَشَّيْنَ الأَلوانَ، ويمرُّ بِأَبيكنَّ إِلى النَّارِ؟!

وفَرضَ لِنَفسِهِ أجراً مِنْ بيتِ مالِ المُسلمينَ درهمينِ كُلَّ يومٍ، عَلى حينِ فَرضَ لُعمَّالِهِ مِنَ الولاةِ والأُمراءِ ثَلاثَمئة دينارٍ لِكُلِّ واحدٍ كَي يُغنيَهُمْ عَنِ الخيانَةِ، ومَشهورٌ عَنهُ رضي الله عنه أَنَّهُ

كانَ يُطفئُ الشَّمعةَ الَّتي زَيتُها مِنْ بيتِ مالِ المُسلمينَ إِذا شَغَلَهُ أَحدٌ بِالسُّؤالِ عَنْ شَخصِهِ كراهيَةً لإنفاقِ مالِ الغيرِ مِنْ غيرِ حاجةٍ.

ولَمْ يَكُنْ زُهدُهُ وورعهُ حالةً خاصَّةً يُطبِّقُها عَلى نَفسِهِ وحسبُ، وإِنَّما كانَ حالةً عامَّةً طبَّقَها على ولاتِهِ وأُمرائِهِ، وعلى سياسةِ الدَّولةِ العامَّةِ في الإنفاقِ، وطَلبَ مِنْ عُمَّالِهِ أَنْ يَلتزموا بِها قَدرَ اسْتطاعَتِهِمْ حفاظاً عَلى حقوقِ وأَموالِ الأُمَّةِ، طلبَ مِنْهُ أَحدُ ولاةِ الأَمصارِ يوماً قَراطيسَ يَكتبُ عليها في مصالحِ وأَعمالِ ولايتِهِ كما اعتادَ أَنْ يَطلبَ مِنَ الخليفةِ قبلَهُ، فَردَّ إِليهِ عُمرُ رِسالةً يَقولُ لَهُ فيها:

«أَمَّا بَعدُ، فَقَدْ قَرأتُ كتابَكَ إِلى سُليمانَ تذكُرُ فيهِ أَنَّهُ قَدْ كانَ يجري على مَنْ كانَ قبلكَ مِنْ أُمراءِ المَدينةِ مِنَ القراطيسِ لِحوائِجِ المُسلمينَ كذا وكذا، فابتليتُ بِجوابِكَ فيهِ، فإِذا جاءَكَ كتابي هذا فَأَرِقَّ القلمَ واجمَع الخطَّ، واجمَع الحوائِجَ الكثيرَةَ في الصَّحيفَةِ الواحدةِ، فَإِنَّهُ لا حاجةَ لِلمُسلمينَ في فَضلِ قَولٍ أَضرَّ بيتَ مالِهِمْ، والسَّلامُ».

وهكذا كانَ عُمرُ دوماً يُقلِّلُ مِنَ اللَّوازمِ والأَشياءِ الَّتي تُقضَى مِنها مصالحُ الولاياتِ حفاظاً على المالِ العامِّ، لِما كانَ يَحسبُهُ في تَدبيرِهِ مُسبَقاً مِنْ هَدرٍ وتَلفٍ لِهذِهِ الأَشياءِ إِذا فاضَتْ عَنْ حاجتِها، وهذِهِ الأُمورُ لا يفطنُ إِليها إِلَّا الحُكَّامُ والمُلوكُ الرَّبانيُّونَ الَّذينَ يَغارونَ عَلى أَموالِ الأُمَّةِ ومصالِحِها، قبلَ أَنْ يُفكِّروا بمِصالِحِهِمْ وتَقويَةِ نفوذِهِمْ.

❋ ❋ ❋

لقَدْ قامَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ بِإِصلاحاتٍ عامَّةٍ غَفلَها الخُلفاءُ الأُمويونَ قَبلَهُ، الَّذينَ لَمْ

يَكُنْ لَهُمْ هَمٌّ سِوَى أنْ يَحكموا البِلادَ إدارياً وسِياسياً واقتصادياً، ولو كانَ ذَلكَ عَلى حِسابِ الشَّرْعِ وأَحكامِهِ، فَكانوا يُغلِّبونَ المَصلحةَ الإداريَّةَ عَلى مَصلحةِ الشَّرْعِ، أَمَّا هوَ فكانَ حريصاً عَلى تَقديمِ مصالحِ الشَّرْعِ على المصالحِ الإداريَّةِ لِلدولَةِ.

فَمِنْ ذَلكَ أَنَّهُ عِندما كَثُرَ دُخولُ أَهلِ الذِّمَّةِ في الإسلامِ كانَتْ تَسقُطُ عَنهُم الجزيَةُ الَّتي كانَتْ مِنْ أَهمِّ المَواردِ الماليَّةَ لِلدَّولةِ، فَكتَبَ إليهِ أَحدُ عُمَّالِهِ يُصوِّرُ لَهُ الخَسائِرَ الماليَّةَ الفادحةَ الَّتي لَحقَتْ بِبيتِ المالِ، فَيكتبُ لَهُ الخليفَةُ عُمرُ يَردُّ عليهِ مِنْ غيرِ اكتراثٍ لِذلِكَ قائِلاً: «إنَّ اللهَ بَعثَ مُحمَّداً داعياً إلى الإسلامِ، ولَمْ يَبعَثْهُ جابياً».

وإذا كانَتْ غايَةُ الشَّرْعِ رِعايَةَ مصالحِ النَّاسِ، فَقَدْ طَبَّقَ عمرُ هذا المَبدأَ في سياستِهِ العامَّةِ، ولو أَدَّى ذَلِكَ إلى أَعظمِ الخَسائِرِ الماليَّةِ الَّتي تَقعُ عَلى عاتقِ الدَّولَةِ، فَكتبَ إلى عاملِهِ في اليَمنِ كتاباً يَقولُ فيهِ:

«أَمَّا بَعدُ، فَإِنَّكَ كتبتَ إليَّ تَذكُرُ أَنَّكَ قَدمتَ اليَمنَ، فَوجدتَ على أَهلِها ضَريبَةً مِنَ الخِراجِ مَضروبَةً، ثابتةً في أَعناقِهِمْ كالجزيَةِ، يؤدُّونَها عَلى كُلِّ حالٍ، إنْ أَخصَبوا أَو أَجدبوا، وحَيَوا أَو ماتوا، فسبحانَ اللهِ رَبِّ العالمينَ، ثُمَّ سبحانَ اللهِ رَبِّ العالمينَ، ثُمَّ سبحانَ اللهِ رَبِّ العالمينَ! إذا أَتاكَ كتابي هذا، فَدَعْ ما تُنكِرُ مِنَ الباطلِ إلى ما تَعرفُهُ مِنَ الحَقِّ، فَاعْمَلْ بِهِ بالغاً بي وبِكَ وإنْ أَحاطَ بِمُهَجِ أَنفُسِنا، وإنْ لَمْ تَرفَعْ إليَّ مِنْ جَميعِ اليَمنِ إلَّا حُفنةً مِنْ كَتمٍ، فَقَدْ عَلمَ اللهُ أَنّي بِها مَسرورٌ إذا كانَتْ موافِقَةً لِلحقِّ.. والسَّلامُ».

وشَجَّعَ عَلى التِّجارَةِ الحُرَّةِ دونَ تَدَخُّلِ الدَّولةِ في فَرضِ الضَّرائِبِ والمُكوسِ، وفتحَ

طريقَ البَرِّ والبَحرِ أَمامَ النَّاسِ وخَلَّى سبيلَ تِجارَتِهِمْ، فَقَالَ لِعُمَّالِهِ: «وأَمَّا البَحرُ فَإِنَّا نَرَى سبيلَهُ سبيلَ البرِّ، قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [الجاثية: 12] فَأُذَنْ أنْ يَتَّجِرَ فيهِ مَنْ شاءَ. وأرى أَنْ لا نَحولَ بينَ أَحدٍ مِنَ النَّاسِ وبينَهُ، فَإِنَّ البرَّ والبَحرَ للهِ جميعاً سَخَّرهُما لِعبادِهِ، يَبتغونَ فيهِما مِنْ فَضلِهِ، فَكيفَ نَحولُ بينَ عبادِ اللهِ وبينَ معائِشِهِمْ؟».

وبلغَ مِنْ شدَّةِ حرصِهِ عَلى مصالحِ النَّاسِ، أنْ فتحَ بابَهُ لِكُلِّ وافدٍ يُخبرُهُ بِما وقعَ عَلى النَّاسِ مِنْ جورِ الولاةِ أَو الأُمراءِ، أَو يُشيرُ عليهِ بِما يَعودُ بِالنَّفعِ عَلى البِلادِ والعبادِ، فَكتبَ إِلى أَهلِ المواسمِ يَقولُ: «أَمّا بَعدُ، فَأَيُّما رَجلٍ قَدمَ إِلينا في رَدِّ مَظلمةٍ، أَو أَمرٍ يُصلحُ اللهُ بِهِ خاصّاً أَو عامّاً مِنْ أَمرِ الدِّين، فَلهُ ما بينَ مئة دينارٍ إِلى ثَلاثمئة دينارٍ، بِقدرِ ما يَرى الحَسبَةُ، وبُعدُ سَفرٍ، لَعلَّ اللهَ يُحيي بِهِ حقاً أَو يُميتُ باطلاً، أَو يَفتحُ بِهِ مِنْ ورائِهِ خيراً».

وفَوقَ كُلِّ ذَلكَ كانَ عُمرُ داعيَةً مِنَ الطِّرازِ النَّادرِ، وقَلدَّ طريقَةَ الرَّسُولِ ﷺ والخُلفاءِ الرَّاشدينَ في الدَّعْوَةِ إِلى الإِسلامِ، فَقَالَ «البَلاذريُّ» في «فتوحِ البُلدانِ»:

«كتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إِلى ملوكِ الهندِ يَدعوهُمْ إِلى الإِسلامِ والطَّاعةِ، وقَدْ كانَتْ بَلغَتْهُمْ سيرَتُهُ ومَذهبُهُ، فَأَسلموا وتَسَمَّوا بِأَسماء عربيَّةٍ».

ويَذكرُ الأُستاذُ المرحومُ «مُحمَّدُ كرد علي» في كتابِهِ «الإِسلام والحضارة العربيَّة»: أَنَّ عُمرَ لَمَّا اسْتُخلِفَ كتبَ إِلى ملوكِ ما وراءِ النَّهرِ يَدعوهُمْ إِلى الإِسلامِ، فَأَسلمَ بَعضُهُمْ، ورَفعَ الخراجَ عَمَّنْ أَسلمَ بِخراسانَ، وفرضَ لِمَنْ أَسلمَ، وابْتَنَى خاناتٍ.

وإلى عُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ يَعودُ الفَضلُ بِدخولِ أَهلِ المَغربِ في الإِسلامِ، كما كانَ أَوَّلَ الخُلفاءِ غيرةً عَلى العلمِ الشَّريفِ، فَكتبَ إِلى «ابنِ حزمٍ» كبيرِ مُحدِّثي عَصرِهِ يَقولُ لَهُ: «انظُرْ إِلى ما كانَ مِنْ حديثِ رَسولِ اللهِ ﷺ فَاكتُبْهُ، فَإِنِّي خفتُ درسَ العلمِ وذَهابَ العُلماءِ».

وفَضلاً عَنْ هذا وذاكَ كانَ مِنَ العُلماءِ الرَّاسخينَ والرَّبانيينَ، ويَرى بَعضُ الباحثينَ المُعاصرينَ، أَنَّهُ لولا الخلافَةُ لكانَ مِنَ العُلماءِ المَعدودينَ أو الفُقهاءِ المَشهورينَ في تاريخِنا، وقَدْ مدحَ كثيرٌ مِنَ العُلماءِ والمُؤَرِّخِينَ علمَهُ، حتَّى قالَ فيهِ «الذَّهبيُّ» في «تَذكرةِ الحفَّاظِ»: «كانَ يُقْرَنُ بِالزُّهريِّ في علمِهِ».

وقالَ المُحدِّثُ الكبيرُ «مُجاهدٌ» يَمدحُ علمَ عُمرَ: «أَتيناهُ لِنُعلِّمَهُ فَما بَرِحْنا حتَّى تَعلَّمنا مِنهُ».

الأَسئلة والمناقشة

1 ـ لِماذا قُرِنَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ بِالخُلفاءِ الرَّاشدينَ؟

2 ـ كيفَ تَبدَّلَ الحالُ بَعدَ نِهايَةِ الخِلافَةِ الرَّاشِدَةِ؟

3 ـ كيفَ كانَ المبدأُ السَّائِدُ في بَيتِ مالِ المُسلمينَ في العَهدِ الرَّاشديِّ، وكيفَ صارَ بَعدَهُ؟

4 ـ مَنْ يَكونُ والدُ عمرَ، ومَنْ تكونُ أُمُّهُ؟

5 ـ ماذا قالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه لابنهِ عاصمٍ لَمَّا أمرَهُ بِالزَّواجِ مِنَ الجاريَةِ الهلاليَّةِ؟

6 ـ لِماذا كانَتْ خلافَةُ عُمرَ ثَقيلةً عَلى بَعضِ أَفرادِ البيتِ الأُمويِّ؟

7 ـ بِماذا شَرعَ عُمرُ منذُ اليَومِ الأَوَّلِ لِتقلُّدِهِ الخلافَةَ؟

8 ـ عَدِّدْ أَهمَّ الإصلاحاتِ الَّتي قامَ بِها عُمرُ رضي الله عنه.